{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ } * { وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً } * { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }(1-3)

قوله تعالى: {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}: عليك و على أمتك، و المقصود: إذا جاء هذان الفعلان من غير نظر إلى متعلقهما، كقوله تعالى:

{أَمَاتَ وَ أَحْيَا}

[النجم: 44].

"أل" في "الفتح" عوض من الإضافة: أي: و فتحه عند الكوفيين، و العائد محذوف عند البصريين، أي: و الفتح منه للدلالة على ذلك، و العامل في "إذا": "جاء" و هو قول مكي، و إليه ذهب أبو حيَّان و غيره في مواضع و قد تقدم ذلك.

و إما "فسبِّح"، و إليه نحا الزمخشريُّ و الحوفي، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء، و رده أبو حيَّان بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، و فيه بحثٌ تقدم بعضه في سورة "الضحى".

فصل في الكلام على " نصر "

النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض، إذا أعان على إنباتها.

قال الشاعر: [الطويل]

5337- إذَا انْسَلَخَ الشَّهْرُ الحَرَامُ فَوَدِّعي بِلادَ تَمِيمٍ و انصُرِي أرضَ عَامرِ

ويروى: [الطويل]

5338- إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الحَرَامُ فَجَاوِزِي بِلادَ تَمِيمٍ وَ انْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ

يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً، أي: أعانه، و الاسم: النُّصرة، و استنصره على عدوه، أي: سأله أن ينصره عليه، و تناصروا: نصر بعضهم بعضاً.

و قيل: المرادُ بهذا النصر: نصر الرسول - عليه الصلاة و السلام - على قريش قاله الطبري.

[و قيل نصره على من قاتله من الكفار و أن عاقبه النصر كانت له و أما الفتح فهو فتح مكة، قاله الحسن و مجاهد و غيرهما، و قال ابن عباس و سعيد بن جبير هو فتح المدائن و القصور و قيل فتح سائر البلاد، و قيل ما فتحه عليه من العلوم، و قيل إذا بمعنى قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح، و يجوز أن يكون معناه إذا يجيئك].

فصل في الفرق بين النصر و الفتح

قال ابن الخطيب: الفرق بين النصر و الفتح، الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً، و النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، و عطف الفتح عليه، و يقال: النصرُ كمالُ الدينِ و الفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمةِ، كقوله تعالى: {**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً**}

[المائدة: 3].

و النَّصْر: الظَّفر في الدنيا، و الفتح: بالجنة.

فصل في المراد بهذا النصر

قال ابن الخطيب: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان مؤيداً منصوراً بالدلائل، و المعجزات، فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح "مكة"؟.

و الجواب: أن المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع.

فإن قيل: النصر لا يكون إلا من الله تعالى، قال تعالى:
{وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللهِ}
[الأنفال: 10] فما فائدة التقييد بقوله تعالى: {نَصْرُ ٱللهِ}؟.

فالجواب: معناه: لا يليق إلا بالله، كما يقال: هذه صنعة زيد، إذا كان مشهوراً، فالمراد هذا هو الذي سألتموه

فإن قيل: لم وصف النصر بالمجيء، و حقيقته: إذا وقع نصر الله، فما الفائدة في ترك الحقيقة، و ذكر المجاز؟.

فالجواب: أن الأمور مرتبطةٌ بأوقاتها، و أنه – تعالى – قد ربط بحدوث كلِّ محدث أسباباً معينة، و أوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم، و التأخر، و التبدل، و التغير، فإذا حضر ذلك الوقت، و جاء ذلك الزمان حضر ذلك الأثر معه، و إليه الإشارة بقوله:
{وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}

[الحجر: 21].

فإن قيل: الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه و سلم على فتح مكة هم الصحابة – رضي الله عنهم – ثم إنه تعالى سمى نصرتهم لرسول الله صلى الله عليه و سلم فما السبب في إضافة النصر إليه؟.

فالجواب: أن النصر و إن كان على يد الصحابة لكن لا بدَّ لهم من داعٍ و باعث، و هو من الله تعالى.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد متقدماً على فعل الله، و هو خلاف قوله تعالى:

{إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ}

[محمد: 7] فجعل نصر العبد مقدماً على نصره لنا.

فالجواب: أن لا امتناع في أن يكون فعل العبد سبباً لفعل آخر يصدر عن الله – تعالى – فإن أسباب الحوادث و مسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن إدراكها العقول البشرية.

قوله: {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ}، "رأيت" يحتمل أن يكون معناه: أبصرت، و أن يكون معناه: علمت، فإن كان معناه "أبصرت" كان "يَدخُلونَ" في محل النصب على الحال، و التقدير: و رأيت الناس يدخلون حال دخولهم في دين الله أفواجاً، و إن كان معناه: "علمت" كان "يدخُلونَ" مفعولاً ثانياً لـ "علمت" و التقدير: علمت الناس داخلين في دين الله أفواجاً.

و في عبارة الزمخشري: أنه كان بمعنى "أبصرتُ"، أو "عرفت".

و ناقشه أبو حيان: بأن "رأيت" لا يُعرف كونها بمعنى " عرفت " قال: " فيحتاج في ذلك إلى استثبات ".

و قرأ العامة: "يدخلون" مبنياً للفاعل.

و ابن كثير في رواية: مبنياً للمفعول و "فِي دِيْنِ" ظرف مجازي، و هو مجاز فصيح بليغ هاهنا.

قوله: {أَفْوَاجاً} حال من فاعل "يَدخُلُونَ".

قال مكي: "و قياسه: "أفوج" إلا أن الضمة تستثقل في الواو فشبهوا "فعلاً" – يعني بالسكون – بـ " فَعل – يعني بالفتح – فجمعوه جمعه " انتهى.

أي: أن "فَعْلاً" بالسكون، قياسه "أفعُل" كـ "فَلْس" و "أفلُس" إلا أنه استثقلت الضمةُ على الواوِ، فجمعوه جمع "فعل" بالتحريك نحو: جمل، و أجمال، لأن "فعْلاً" بالسكون على "أفعال" ليس بقياس إذا كان فعلاً صحيحاً، نحو: فرخ و أفراخ و زند و أزناد، و وردت منه ألفاظ كثيرة، و مع ذلك فلم يقيسوه، و قد قال الحوفي شيئاً من هذا.

فصل في الكلام على لفظ الناس

ظاهر لفظ "النَّاس" للعموم، فيدخل كل النَّاس أفواجاً، أي: جماعات، فوجاً بعد فوجٍ، و ذلك لما فتحت "مكة" قالت العرب: أما إذْ ظفر محمد صلى الله عليه و سلم بأهل الحرم، و قد كان الله – تعالى – أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان؛

فكانوا يسلمون أفواجاً أفواجاً أمة بعد أمةٍ.

قال الضحاكُ: و الأمة: أربعون رجلاً.

و قال عكرمةُ: و مقاتل: أراد بالنَّاس أهل "اليمن"، و ذلك أنه ورد من "اليمن" سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، و بعضهم يقرءون القرآن، و بعضهم يهلِّلُون، فسُرَّ النبي صلى الله عليه و سلم قرأ: {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} و جاء أهل اليمن، رقيقة أفئدتهم لينة طباعهم، سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً.

و روى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم **"أتَاكُمْ أهْلُ اليَمنِ، وَ هُمْ أضْعَفُ قُلوباً، و أرَقُّ أفئِدَةً، الفقهُ يمانٍ، و الحِكمةُ يَمَانِيةٌ"**.

و قال صلى الله عليه و سلم: **"إنِّي لأجدُ نَفَسَ ربِّكُمْ من قبلِ اليَمنِ"** و فيه تأويلان:

أحدهما: أنه الفرجُ، لتتابع إسلامهم أفواجاً.

و الثاني: معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه و سلم بأهل "اليمن" و [الأنصار].

و روى جابرُ بنُ عبد الله قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"إنَّ النَّاس دخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً و سيَخرُجُونَ مِنهُ أفواجاً"** ذكره الماوردي.

قال ابن الخطيب: كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً، و اثنين اثنين.

فصل في المراد بدين الله

و دينُ الله، هو الإسلام، لقوله تعالى:

{إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلإِسْلاَمُ}

[آل عمران: 19]،

{وَ مَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}

[آل عمران: 85]، و إضافة الدين إلى الاسم الدال على الإلهية، إشارة إلى أنه يجب أن يعبد لكونه إلهاً، و للدين أسماء أخر، قال تعالى:

{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ}

[الذاريات: 35، 36].

و منها: الصراط، قال تعالى:

{صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي ٱلأَرْضِ}

[الشورى: 53].

و منها: كلمة الله، و منها النور:

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللهِ}

[الصف: 8].

و منها الهدى، قال تعالى:

{ذٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ}

[الأنعام: 88].

و منها العروة الوثقى

{فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِن بِٱللهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ}

[البقرة: 256].

و منها: الحبلُ المتين:

{وَ ٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً}

[آل عمران: 103].

و منها: حنيفة الله، و فطرة الله.

فصل في إيمان المقلد

قال جمهور الفقهاء و المتكلمين: إيمان المقلد صحيح، و احتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، و جعله من أعظم المنن على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم و لو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدليل، و إثبات كونه تعالى منزّهاً عن الجسمية، و المكان و الحيز، و إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، و لا إثبات الصفات، و التنزيه بالدليل، و العلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح، لا يقال: إنهم كانوا عالمين

بأصول دلائل هذه المسائل؛ لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل كانوا جاهلين بالتفاضل؛ لأنا نقول: إن الدليل لا يقبل الزِّيادة و النُّقصان، فإن الدليل إذا كان مركباً من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، و كان في المقدمة العاشرة مقلداً، كان في النتيجة مقلداً لا محالة.

قوله: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، {بِحَمْدِ رَبِّكَ} حال، أي: ملتبساً بحمده.

قال ابن الخطيب: إنه – تعالى – أمره صلى الله عليه و سلم بالتسبيح، ثم بالحمد، ثم بالاستغفار، و الفائدة فيه أن تأخير النصر سنين، مع أن محمداً صلى الله عليه و سلم كان على الحقّ، مما يثقل على القلب، و يقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلم لا ينصرني، و لو سلطت على هؤلاء الكفار. فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر، أمر بالتسبيح أما على قولنا: فالمراد من هذا التنزيه، أنه تعالى منزَّه عن أن يستحق عليه أحد شيئاً [بل كل ما يفعله بحكم المشيئة الإلهية، فله أن يفعل ما شاء كما يشاء، ففائدة التسبيح: تنزيه الله تعالى عن أن يستحق عليه أحد شيئاً].

و أما على قول المعتزلة، ففائدة التنزيه: هو أن يعلم العبد أن تنزيه اللهِ تعالى عما لا يليق و لا ينبغي بسبب المصلحة، لا بسبب ترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد من تنزيه الله، فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطاه من الإحسان و البر، ثم حينئذ بالاستغفار بذنوب نفسه.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} أي: إذا صليت، فأكثر من ذلك.

و قيل: معنى "سَبِّحْ" صلِّ، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

[و قوله: {بِحَمْدِ رَبِّكَ} حامداً له على ما آتاك من الظفر، و الفتح، و استغفره أي: سلوا الله الغفران.

و قيل: فسبح أي: المراد به التنزيه، أي: نزهه عما لا يجوز عليه، مع شكرك له، و بالاستغفار، و مداومة الذكر].

و روي في " الصحيحين " عن عائشة – رضي الله عنها – **"قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة بعد أن نزلت سورة {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} إلا يقولُ فيها: سبحانك اللَّهُمَّ و بحمدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ".**

و قالت أم سلمة – رضي الله عنها –: **"كان النبي صلى الله عليه و سلم آخر أمره لا يقوم، و لا يقعد، و لا يجيء، و لا يذهب إلاَّ قال: "سُبحانَ اللهِ و بحَمدِهِ، أسْتغْفِرُ الله، و أتوبُ إليه" قال: "فإنِّي أمرتُ بِهَا"، ثم قرأ: {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}"**

إلى أخرها.

و قال عكرمة: لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم على أصحابه قط أشدّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها.

و قال مقاتل: **"لما نزلت، فقرأها النبي صلى الله عليه و سلم على أصحابه، و منهم أبو بكر و عمر و سعد بن أبي وقاص، ففرحوا، و استبشروا، و بكى العباس،**

فقال له النبي صلى الله عليه و سلم: "مَا يُبْكِيْكَ يَا عمّ".

قال: نُعيتْ إليك نَفسُكَ، قال: "إنَّهُ لَكَمَا تقُولُ"، فعاش بعدها ستين يوماً، ما رئي فيها إلا ضاحكاً مستبشراً".

و قيل: **"نزلت في "منى" بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداعِ، فبكى عمر و العباس فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقال: لا بل فيه نعي النبي صلى الله عليه و سلم فقالَ النبي صلى الله عليه و سلم: " صدقتما، نعيت إليَّ نفسي"".**

و روى البخاري، و غيره عن ابن عبَّاس، قال: كان عمر بن الخطَّاب يأذن لأهل بدر، و يأذن لي معهم، قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا، و من أبنائنا من هو مثله، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم، و أذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورةِ: {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}، فقالوا: أمر الله – جلَّ و عزَّ – نبيه صلى الله عليه و سلم إذا فتح عليه أن يستغفره، و أن يتوب إليه، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟.

قلتُ: ليس كذلك و لكن أخبر الله رسوله صلى الله عليه و سلم بحضور أجله، فقال: {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}، فذلك علامة موتك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا}، فقال عمر – رضي الله عنه –: تلومونني عليه؟ و في رواية: قال عمر: "ما أعلم منها إلا ما تقول".

فصل

فإن قيل: فماذا يغفر للنبي صلى الله عليه و سلم حتى يؤمر بالاستغفار؟.

فالجواب: كان النبي صلى الله عليه و سلم يقول في دعائه: " **ربِّ اغفِرْ لِي خَطيْئَتِي و جَهْلِي، و إسْرافِي في أمْرِي كُلِّه، و مَا أنْتَ أَعْلَمُ بِهِ منِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي خَطيئَتِي، و عمدي، و جهْلِي و هزلِي، و كل ذلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغفر لِي ما قدَّمْتُ و ما أخَّرتُ، و ما أعْلنتُ، و مَا أسْرَرْتُ، أنتَ المُقدِّمُ، و أنتَ المُؤخِّرُ، إنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ** ".

[و كان الرسول صلى الله عليه و سلم يستغفر لنفسه لعظيم ما أنعم الله عليه، و يرى قصوره عن القيام بحقّ ذلك.

و قيل: حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِيْنَ.

و قيل: يحتمل أن يكون المعنى كن متعلقاً به سائلاً راغباً متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق.

و قيل: الاستغفار نفسه يجب إتيانه لا للمغفرة بل تعبداً.

و قيل: و استغفر أي: استغفر لأمتك إنه كان تواباً على المسبحين و المستغفرين، يتوب عليهم و يرحمهم، و يقبل توبتهم، و إذا كان عليه السلام و هو معصوم يؤمر بالاستغفار فماذا يظنّ بغيره].

فصل في تفسير الآية

قد مرَّ تفسير الحمد، و أما تفسير قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} ففيه وجوه:

الأول: قال الزمخشري: قل: سبحان الله، و الحمد لله، تعجباً مما أراك الله من عجيب إنعامه، أي: اجمع بينهما، كقولك: الماءُ باللبن، أي: اجمع بينهما خلطاً، و شرباً.

الثاني: أنَّ التسبيح داخل في الحمد؛ لأنك إذا حمدت الله تعالى، فقد سبَّحته بواسطته، لأن الثناء عليه، و الشكر له يتضمن تنزيهه عن النقائص، و لذلك جعل الحمد مفتاح القرآن، فمعنى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، أي: سبحه بواسطته، أن تحمده، و أن تسبحه بهذا الطريق.

الثالث: أن يكون حالاً، أي: سبحه مقدراً أن تحمد بعد التسبيح، كأنك تقول: لا يتأتى لك الجمع بينهما لفظاً، فاجمعهما نية كما تنوي الصلاة يوم النحر مقدراً أنك تنحر بعدها، فيجتمع لك الثواب في تلك الحالة.

الرابع: أن هذه الباء كهي في قولك: فعلت هذه بفضل الله، أي: بحمده، أي: أنه الذي هداك لرشدك لا تجد غيره، كقوله صلى الله عليه و سلم: " **الحَمدُ للهِ على الحَمْدِ** ".

الخامس: قال السديُّ: " بِحَمْدِ رَبِّكَ " أَيْ: بِأَمْرِ رَبِّكَ.

السادس: أن تكون الباء زائدة، و التقدير: سبح حمد ربك، أي: طهر محامد ربك عن الرياء و السمعة، أو اختر له أطهر المحامد، و أذكاها و أحسنها أو ائْتِ بالتسبيح و التنزيه بدلاً عن الحمد.

السابع: فيه إشارة إلى أن التسبيح و الحمد لا يتأخر أحدهما عن الآخر، و لا يمكن أن يؤتى بهما معاً، و نظيره: من ثبت له حق الشفعة، و حق الرد بالعيب وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا هاهنا، قال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} ليقع معاً، فيصير مسبحاً حامداً في وقت واحد معاً.

[فإن قيل: التوبة مقدمة على جميع الطَّاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح؛ لأن الحمد على النعم، و النعم سابقة أيضاً، و الاستغفار سابق، ثم التسبيح؟ فالجواب لعله بدأ بالأشرف تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق، أو نبّه بذلك على أن التسبيح و الحمد الصادرين من العبد، إذا قابلا جلال الحقّ و عزته استوجبا الاستغفار، وَ لأَنَّ التَّسْبِيْحَ وَ الْحَمْدَ إِشَارَةٌ إِلَى تَعْظِيْمِ أَمْرِ اللهِ، وَ الاِسْتِغْفَارُ إِشَارَةٌ إِلَى الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللهِ، فَالأَوَّلُ كَالصَّلاَةِ، وَ الثَّانِيْ كَ لزَّكَاةِ فَكَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ مُقَدِّمَةٌ عَلَى لزَّكَاةِ، فَكَذَا هَاهَنَا].

فإن قيل: قوله تعالى: {كَانَ تَوَّابَا} بدل من الماضي، و حاجتنا إلى قبوله في المستقبل و أيضاً: هلا قال سبحانه:

{غَفَّاراً}

[نوح: 10]، كما قال تعالى في سورة نوح عليه الصلاة و السلام.

و أيضاً قال تعالى: {نَصْرُ ٱللهِ}، و قال: {فِي دِينِ ٱللهِ} و قال: {بِحَمْدِ رَبِّكَ} و لم يقل: بحمد الله.

فالجواب عن الأول: أن هذا أبلغ كأنه يقول: إني أثنيت على من هو أقبح فعلاً منهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات الظاهرة العظيمة، كفلق البحر، و نتق الجبل و

نزول المنِّ و السلوى عصوا ربَّهم، و أتوا بالقبائح، و لما تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنت قابلاً لتوبة أولئك، و هم دونكم، أفلا أقبل توبتكم، و أنتم خير أمة أخرجت للنَّاس؟ أو لأني شرعت في توبة العصاة، و الشروع ملزم أو هو إشارة إلى تخفيف جنايتهم، أي: لستم أول من جنى، و المصيبة إذا عمت خفت؛ أو كما قيل: [المتقارب]

5339- كَما أحْسنَ اللهُ فِيما مَضَى كَذلِكَ يُحسِنُ فِيمَا بَقِي

و الجواب عن الثاني: لعله خص هذه الأمة بمزيد الشرفِ، لأنه لا يقال في صفات العبد: غفار أو يقال: تواباً، و يقال إذا كان آتياً بالتوبة، فكأنه تعالى يقول: كنت لي سمياً من أول الأمر، أنت مؤمن، و أنا مؤمن، و إن اختلف المعنى فتب حتى صرت سمياً في آخر الأمر، فأنت تواب، و أنا تواب، ثم التواب في حق الله تعالى أنه يقبل التوبة كثيراً، فيجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً.

[و أنه إنما قال: تواباً، لأن القائل قد يقول: أستغفر الله، و ليس بتائب كقول المستغفر بلسانه المصر بقلبه، كالمستهزئ.

فإن قيل قد يقول: أتوب، و ليس بتائب.

قلنا: فإذن يكون كاذباً، فإن التوبة اسم للرجوع، أو الندم بخلاف الاستغفار، فإنه لا يكون كاذباً فيه، فيكون تقدير الكلام: و أستغفر الله بالتوبة، و فيه تنبيه على خواتم الأعمال].

و الجواب عن الثالث: أنه راعى العدل، فذكر اسم الذَّات مرتين، و ذكر اسم الفعل مرتين؛ أحدهما: الرب والثاني: التواب، فلما كانت التربية تحصل أولاً، و التوبة آخراً، لا

جرم ذكر اسم الرب أولاً، و اسم التوبة أخراً.

فصل في نزول السورة

قال ابن عمر – رضي الله عنهما – نزلت هذه السورة بـ " منى " في حجة الوداع ثُمَّ نزلت:

{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً}

[المائدة: 3] فعاش صلى الله عليه و سلم بعدها خَمْسِيْنَ يَوْمًا، ثم نزل:

{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ}

[التوبة: 128] فعاش بعدها خَمْسَةً وَ ثَلاَثِيْنَ يَوْمًا، ثم نزلت:

{وَ ٱتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ}

[البقرة: 281] فعاش بعدها صلى الله عليه و سلم أَحَدًا وَ عِشْرِيْنَ يَوْمًا.

و قال مقاتل: سَبْعَةَ أَيَّامٍ.

و قيل غير ذلك.

فصل

قال ابن الخطيب: اتفق الصحابة – رضي الله عنهم – على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فإن قيل: كيف دلت السورة على هذا المعنى؟.

فالجواب من وجوه:

أحدها: قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روي أنه صلى الله عليه و سلم خطب عقيب السورة، و ذكر التخيير.

و ثانياً: أنه لما ذكر حُصول النَّصر، و دخول النَّاس في دين الله أفواجاً، دل ذلك على حصول التمام، و الكمال، و ذلك يستعقبه الزَّوال؛ كما قيل: [المتقارب]

5340- إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقصهُ تَوقَّعْ زَوالاً، إذا قِيلَ: تَمْ

و ثالثها: أنه جل ذكره أمر بالتسبيح، و الحمد، و الاستغفار مطلقاً، و اشتغاله صلى الله عليه و سلم بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أنّ التبليغ قد تم و كمل، وذلك يوجب الموت، لأنه لو بقي صلى الله عليه و سلم بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، و هذا غير جائزٍ.

و رابعها: قوله: "و اسْتَغْفِرْهُ" تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الأجل ودنا الرحيل فتأهّبْ. و نبه على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله يستكثر من التوبة.

و خامسها: كأنه قيل: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، و هو النصر و الفتح، و الله تعالى وعدك بقوله:

{وَ لَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلأُولَىٰ}

[الضحى: 4] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادة العالية.

روى الثعلبي عن أبيّ– رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " **مَنْ قَرَأَ سُورةَ: "النصر" فَكَأنَّمَا شَهِدَ مَع مُحمَّدٍ عليه الصَّلاة و السَّلام فَتْح مَكَّة**".